



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

دراسات | 07 نيسان/ أبريل، 2020

لفظ «علمانية» من القرن الرابع الهجري، و«علماني» و«علمانيون» من القرن الخامس

عزمي بشارة

عزمي بشارة

المدير العام للمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، وعضو مجلس الإدارة في المركز. وهو باحث وكاتب معروف، نُشرت له عدة كتب ومؤلفات في الفكر السياسي، والنظرية الاجتماعية، والفلسفة. عمل أستاذًا للفلسفة والدراسات الثقافية في جامعة بيرزيت بين عامي 1986 و1996. وساهم في تأسيس مراكز بحثية في فلسطين، منها: المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية (مواطن)، ومركز مدى الكرمل للدراسات الاجتماعية التطبيقية. اضطر في عام 2007 إلى الخروج إلى المنفى بعد ملاحقته إسرائيليًا بتهم أمنية.

جميع الحقوق محفوظة للمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات © 2020

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات مؤسسة بحثية عربية للعلوم الاجتماعية والعلوم التطبيقية والتاريخ الإقليمي والقضايا الجيوستراتيجية. وإضافة إلى كونه مركز أبحاث فهو يولي اهتمامًا لدراسة السياسات ونقدها وتقديم البدائل، سواء كانت سياسات عربية أو سياسات دولية تجاه المنطقة العربية، وسواء كانت سياسات حكومية، أو سياسات مؤسسات وأحزاب وهيئات.

يعالج المركز قضايا المجتمعات والدول العربية بأدوات العلوم الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية، وبمقاربات ومنهجيات تكاملية عابرة للتخصصات. وينطلق من افتراض وجود أمن قومي وإنساني عربي، ومن وجود سمات ومصالح مشتركة، وإمكانية تطوير اقتصاد عربي، ويعمل على صوغ هذه الخطط وتحقيقها، كما يطرحها كبرامج وخطط من خلال عمله البحثي ومجمل إنتاجه.

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

شارع الطرفة، منطقة 70

وادي البنات

ص. ب: 10277

الظعائن، قطر

هاتف: + 974 40354111

www.dohainstitute.org

المحتويات

1. نبذة عن الكاتب والكتاب والسياق التاريخي
2. ما جاء في النص لتوثيق لفظة «علماني»
3. المعنى نفسه في القرن الرابع
4. «علماني» بفتح العين
5. العلمانية بكسر العين في القرن الرابع الهجري أيضاً

مقدمة

كان أحد الأسئلة الكثيرة التي حاولت الإجابة عنها في المقدمة والفصل الأول من الجزء الثاني من كتاب **الدين والعلمانية في سياق تاريخي** قد تعلق بأصل التعبير عن التمايز بين مجالي الديني والدنيوي، المقدس والعادي بمصطلحات مشتقة من ألفاظ لاتينية مثل *saeculum* و*laos*. وقد كان واضحاً بالنسبة لي أن أصل التمييز لم يكن في الفلسفة أو في العلم بل هو أصل ديني ثيولوجي تنوحي بواكيره في العصر الوسيط المبكر، وتتمثل جذوره في تمييز المجال الديني لذاته من غيره من مجالات «دنيوية»؛ إذ ميّرت الكنيسة بين رجال الدين ورعيّتهم، واستخدمت لتعيين الرعية مصطلح *laos* باللاتينية أو *laity* بالإنكليزية (وربما يقابلها أيضاً لفظ العامة بالعربية)، مثلما ميّرت حتى بين الرهبان المكرسين للعبادة والكهنة العاملين في أوساط الرعية، *secular clergy* في مقابل *regular clergy*. أما مصطلح «علماني» و«علمانيون» باللغة العربية، فقد استخدمتها أيضاً الكنائس المشرقية في التمييز بين رجال الدين والرعية (وغالباً ما تستخدم الكنائس لفظ الشعب أيضاً). بيد أن لفظ «علمانية» المجرّد بوصفه مصطلحاً (للدلالة على تيار فكري أيديولوجي بشأن علاقة الدين بالدولة وغيرها من المسائل) فلم تستخدمه الكنائس الغربية ولا الشرقية، بل استُخدم من طرف منظري هذا التيار نفسه في القرن التاسع عشر، وسبق أن تطرقت إلى الموضوع بتوسّع⁽¹⁾.

وفي خضم مناقشة أصول اللفظ اللاتيني والعربي لم أحقق في أقدم استخدامات اللفظ العربي. وسوف نرى أنه حين استخدمت الكنائس الشرقية لفظ «علمانية» منذ القدم، فإنه حمل الدلالة نفسها في الاسم كما في صفة «علماني» و«علمانيون» للدلالة على من ليسوا رجال دين.

ومن مزايا معجم الدوحة التاريخي للغة العربية، وهو مشروع ضخم يقوم به المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات وتسهم في تأليفه مجموعة متميزة من علماء اللغة العربية والباحثين، أنه يؤرّخ للفظ ودلالاته المتغيرة منذ أول استخدام مكتوب له، معتمداً على الشواهد والسياقات اللغوية. وقد لفت أحد الزملاء من باحثي المركز والمعجم نظري إلى استخدام للمصطلح في كتاب **تاريخ الأنطاكي «المعروف بصلة تاريخ أوتيداً»** وجده ضمن عمله في المعجم⁽²⁾، وذلك قبل نشر هذا السياق والتأريخ للمصطلح ضمن مصطلحات المعجم، حيث سيجد مكانه في بداية القرن الخامس الهجري، وسيكون في إمكان القارئ أن يطلع عليه في موقع المعجم. والكتاب من تأليف يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي (ت. 458هـ/ 1067م). ويعتبر مصدرًا أساسيًا للمؤرخين في التعرف إلى تاريخ القرنين الرابع والخامس الهجريين/ العاشر والحادي عشر الميلاديين، ولا سيما تاريخ الدولة الفاطمية في مصر والشام والدولة الحمدانية بطلب. وقد عاش الأنطاكي بشكل مباشر فترات مهمة من هذا التاريخ، ولا سيما فترة الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (حكم 386-411هـ/ 996-1020م)، إذ كان في تلك الفترة بطريقاً على الإسكندرية. ولا يمكننا الجزم بأنه أول من استخدمه، إذ يؤرّخ المعجم لأول استخدام مكتوب وصل إلينا. لكن يمكن أن نستنتج أن لفظ «علماني» كان مستخدماً في مجاله التداولي الكنسي حين استخدمه في كتابه. وسوف يتبين لنا أن لفظ «علمانية» استخدم أيضاً في نص مكتوب قبل هذا النص. في كل الأحوال، إن كتابه هو من أقدم النصوص المكتوبة التي تشتمل على هذا الاستخدام شبه المصطلحي/ المفهومي في التمييز بين رجال الدين وعامة المؤمنين.

1 ويفيد التذكير أن سياقات مناقشة العلمانية والمتعلقة بالدولة بتحديداتها دستوريا في الشأن الديني، أو بالفصل بين الدين والدولة وإقصاء الدين من المجال العام في صيغ أخرى أكثر تشدداً، وكذلك المتعلقة بتقليل وزن الدين في الحياة الاجتماعية، وكذلك فصله عن معرفة الطبيعية والمجتمع، كلها سياقات حديثة. لا يمكن استنباطها من النقاش الفيلولوجي.

2 شكر خاص للباحث في المركز رائد السمهوري المعار من المركز للعمل في المعجم في مجال المصطلح.

نبذة عن الكاتب والكتاب والسياق التاريخي

يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي طبيب ومؤرخ، وكان بطريقاً على الإسكندرية. اضطر إلى الخروج من مصر إلى أنطاكية في عام 405هـ / 1016م (يرد في المصادر التي سوف نذكرها لاحقاً أنه خرج في عام 1014م أو 1015م)، في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، الذي شغلت أخباره ثلث كتابه. وفي فترة الحاكم بأمر الله خضعت بلاد الشام كلها للسيطرة الفاطمية ما عدا بعض مناطقها الشمالية، ولا سيما أنطاكية وشيزر اللتين تميزتا بوجود بيزنطي مستمر⁽³⁾.

وقد خرج الأنطاكي من مصر ومعه عدد كبير من المسيحيين واليهود الذين تعرّضوا للاضطهاد في عهد الحاكم بأمر الله. ويعد كتاب الأنطاكي استمراراً لعمل سلفه بطريك الإسكندرية، سعيد بن البطريق⁽⁴⁾. ويتناول الأنطاكي في كتابه أحداث القرنين الرابع والخامس الهجريين / العاشر والحادي عشر الميلاديين، بدءاً من سنة 326هـ / 938م (التي انتهت إليها كتاب ابن البطريق)، وانتهاءً بسنة 425هـ / 1031م. وركّز فيه على تاريخ الإمبراطورية البيزنطية وعلاقتها بالعالم الإسلامي (الدولة الفاطمية في مصر والشام)، وأخبارها السياسية والدبلوماسية والحملات العسكرية، إضافة إلى التطورات الاجتماعية والاقتصادية، والكوارث الطبيعية وغيرها، فضلاً عن تغطيته لأخبار الدولة الفاطمية والعباسية والحمدانية، والصراعات بين المسلمين والبيزنطيين، وبين الأتراك والسلاجقة. كما تناول الأنطاكي في كتابه علاقات المسلمين واليهود والنصارى في تلك الفترة قبل الحملات الصليبية، وظهر دعوة «الموحدين» (الدروز)، والعلاقات بين الدولة الحمدانية وبيزنطة، والعلاقات بين السُّنة والشيعية والدروز، والعلاقات بين أتباع المذاهب النصرانية من ملكية ويعقوبية ونساطرة وغيرهم. وقد عاصر الأنطاكي جزءاً من الحقبة التي أُرّخ لها وعاش أحداثها. وبعد أن انتقل الأنطاكي إلى أنطاكية قام بتنقيح كتابه هناك في نسخة جديدة منه، وذلك بعد وقوفه على مصادر يونانية وسريانية جديدة لأخبار غابت عنه من قبل، وأجرى تعديلات كبيرة على كتابه⁽⁵⁾ لهذا السبب ولأسباب أخرى كما هو واضح.

ما جاء في النص لتوثيق لفظ «علماني»

في تأريخ الأنطاكي لفترة سلفه سعيد بن البطريق، بطريك الإسكندرية، يذكر في أحداث سنة 328هـ / 940م أنه وقع انشقاق بينه وبين شعبه، لا سيما بين جماعة من أطباء مصر وشيوخهم الذين كانوا كارهين لرئاسته. ويروي الأنطاكي حملة أسقف تيسيس⁽⁶⁾، ميخائيل ويعرف بابن النخيلي، على ابن البطريق، واستنفاذه جماعة من الملكة وتحشيدهم عليه، فضلاً عن قطع اسمه في عدّة كنائس. وعاضد ابن النخيلي في مقاومته لابن البطريق أسقف في القزما، يُعرف بابن بليدا. وقام البطريك بمحاولات عديدة لاستصلاحهما لكنه لم يوفق في ذلك. وبعد وفاة أسقف تيسيس سنة 322هـ / 934م، تمكّن ابن البطريق

3 كمال الصليبي، *منطلق تاريخ لبنان*، ط 3 (بيروت: دارنونفل، 2012)، ص 69.

4 طبيب ومؤرخ من مواليد سنة 263هـ / 887م، عاصر الخلفاء العباسيين، من خلافة أبي العباس أحمد المعتمد على الله (فترة الحكم من 256هـ / 870م إلى 279هـ / 892م) وحتى خلافة محمد الراضي بالله (فترة الحكم من 322هـ / 934م إلى 329هـ / 940م). أصبح بطريقاً للإسكندرية سنة 321هـ / 933م أي في السنة الأولى من خلافة القاهرة بالله محمد بن أحمد المعتضد بالله (فترة الحكم من 320هـ / 932م إلى 322هـ / 934م)، وبقي حتى وفاته سنة 328هـ / 940م. ألف كتاباً بعنوان *نظم الجوهر في التاريخ* الذي أُرّخ فيه منذ الخليفة إلى عهده (حتى سنة 326هـ / 983م)، وهو الذي ذيل له الأنطاكي في كتابه *تاريخ الأنطاكي*، وسُمّي كتابه بـ «كتاب الذيل». يُنظر: يسري عبد الغني عبد الله، *معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري* (بيروت: دار الكتب العلمية، 1991)، ص 92؛ جورج شحاتة قنواتي، *المسيحية والحضارة العربية* (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، [د.ت.])، ص 191.

5 يسري عبد الغني عبد الله، ص 187؛ قنواتي، ص 265؛ يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي (ت 485هـ / 1067م)، *تاريخ الأنطاكي "المعروف بصلّة تاريخ أوتيداً"*، تحقيق عمر عبد السلام تدمري (طرابلس، لبنان: جروس برس، 1990)، ص 7-5؛ Alexander Kazhdan (ed.), *The Oxford Dictionary of Byzantium*, Vol. 3 (Oxford and New York: Oxford University Press, 1991), p. 2213; William E. Watson, "Arabic Perceptions of Russia's Christian Conversion," in Albert Leong (ed.), *The Millennium: Christianity and Russia (A.D. 988-1988)*, (Crestwood, NY: St. Vladimir's Seminary Press, 1990), p. 34.

6 تيسيس (بكرتين وتشديد النون، وياء ساكنة) كانت جزيرة في بحر مصر تقع بين القزما ودمياط [كما عرّفها محقق النص].

من تَنيس، إلا أن أهل مصر، بما في ذلك أهل تَنيس، انقسموا عليه، ويقول الأنتاكي إنهم «تحرّبوا حزبين، فصار حزبٌ من الكَهنة والعلمانيّين مع البطريك، وحزبٌ منهم عليه. وكان كل فريق منهم يصلّي في كنيسة مفردة»⁽⁷⁾. ويشير ذلك إلى اتساع آثار الانقسام إلى الرعية في ميدان الاستقطاب بينهما.

من الواضح أن الأنتاكي استخدم الكلمة العربية «علماني» في هذه المرحلة المبكرة للإشارة إلى أتباع الكنيسة من غير الكهنة، مثلما كان يشار إليهم في الكنيسة الكاثوليكية في العصر الوسيط؛ ما يعني أن هذه الكلمة وجدت واستخدمت بالعربية مثلما استخدمت باللاتينية. وسبق أن بينت في كتابي **الدين والعلمانية في سياق تاريخي** أن تقسيم العالم بين المقدس الروحاني والمادي الدنيوي، وبين الديني والزمني saeculum، والكنسي الإكليريكي، و«الشعب» laos أو «الرعية» أي أتباع الكنيسة من غير رجال الدين، هو أصلاً تمييز كنسي، أي أنه قادم إلينا من الثيولوجيا الدينية⁽⁸⁾. وهذا هو الاستخدام الأصلي لمصطلح «علماني». فمن saeculum اللاتينية والتي تعني في الثيولوجيا الدينية الزمن الأرضي (أو الدهر) جاءت كلمة secular الإنكليزية، ومن laos اللاتينية اشتقت laicite الفرنسية. وهذا يعني أن ما يجده لنا هذا النص للأنتاكي هو أن الاستخدام بالعربية قديم للغاية، وربما لا يكون أصلاً ترجمة عن اللاتينية، بل تعبير عربي عن السياق ذاته، وهو التمييز بين ما هو روحاني أبدي، وما هو أرضي دنيوي، بين ما هو قدسي وما هو عادي.

وبما أن النص غير مشكل فإنه لا يظهر إذا كان لفظ «علماني» بكسر العين أو بفتحها، مع أنه واضح من السياق أن المقصود هم «الدنيويون» في مقابل «الكهنة الروحانيين». فهو يستخدم الكهنة والعلمانيين مقابل حزب آخر منهم في إشارة إلى انقسام الجمهور من غير الكهنة بين الكهنة من الطرفين. وهذا يعني العلمانيين بفتح العين، ولا علاقة للفظ في هذا السياق بالعلم الذي تشتق منه كلمة علمانية بكسر العين، بالأمر. فنسبة العلمانية إلى العلم جاء بين الربع الأخير من القرن التاسع عشر بشكل خاص وبين القرن العشرين، ولا علاقة لذلك بأصل المصطلح.

المعنى نفسه في القرن الرابع

سبق هذا الكتاب كتاب آخر، ثمة نقاش عن هوية مؤلفه، ولكن محقق الكتاب يجادل، على نحو مقنع، أن المؤلف هو نفس صاحب كتاب **تفسير الأمانة** (338هـ/950م)، والذي أسهم في تحرير الرسالة المجمعية إلى بطريك السريان عام 377هـ/987م. إنه كتاب **مصباح العقل**⁽⁹⁾ ويعرف كذلك باسم **الاستبصار في جملة مذاهب النصارى** لساوويرس ابن المقفع⁽¹⁰⁾، الذي كانت كنيته قبل الرهبنة «أبو البشر بن المقفع»، المصري المنشأة والمولود عام 302هـ/915م. ومن المرجح أنه ألّف كتابه في نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. كتب ساويرس في اللاهوت وأصول الدين المسيحي، وحاور المتكلمين المسلمين ورجال الدين اليهود، كما حاور النساطرة وغيرهم من أتباع المذاهب المسيحية المختلفة. وكان مقرّباً إلى وزير كافر الإخشيد، أبي اليمن قزمان بن مينا الذي كان قبلياً، كما قربه المعز لدين الله الفاطمي⁽¹¹⁾.

7 الأنتاكي، ص 23، وللتوسع في خلفيات ذلك يُنظر الأنتاكي، ص 23 - 25.

8 عزمي بشارة، **الدين والعلمانية في سياق تاريخي**، ج 2، مج 1، **العلمانية والعلمنة: الميرورة الفكرية** (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2015)، ص 69 - 72.

9 ساويرس ابن المقفع، **مصباح العقل**، تحقيق الأب سمير خليل (القاهرة: سلسلة التراث العربي المسيحي، 1978).

10 ينظر: المرجع نفسه، ص 51.

11 من مقدمة المحقق، المصدر السابق، ص 9.

وفي الفصل الذي يتناول فيه قضايا الزواج، وتحديدًا زواج الكهنة وردت الفقرة التالية: «أما المصريون⁽¹²⁾ فرأوا أن يكون الأسقف [...] بتولاً لم يتزوج في حالة علمانيته، وأما النسطورية والسريان فرأوا أن لا يكون الأسقف البتة ممن تزوج قبل أسقفيته»⁽¹³⁾. واضح، هنا، أن بعض الطوائف أتاحت زواج الكهنة من غير الرهبان، ولكن هؤلاء لا يجوز أن يصبحوا أساقفة. ولا يجوز أن يرسم أسقفًا من تزوج، حتى لو سبق له ذلك قبل أن يصبح رجل دين، أي حين كان «علمانيًا». وهذا هو المقصود بـ «علمانيته» في النص المقتبس، إنها الصفة ذاتها لكن بصيغة المصدر الصناعي. وكما في النص المذكور سابقًا يدور السياق على فتح العين.

ما أنجدنا من افتراض أن في الأمر تصحيلاً أو تحريفاً، وساعدنا في إثبات أن أصل الكلمة هو «العالمانيين» أو «العلمانيين» إذ حذف الناسخ الألف وأبقى فتح العين، هو نص آخر ليوحنا بن أبي زكريا بن سباع، **الجوهرة النفيسة في علوم الكنيسة**. ويعد هذا الكتاب من أقدم المراجع العربية للطقوس القبطية وأهمها، بحسب ما ذكر عنه المستشرق الألماني جورج غراف (1875-Georg Graf 1955) في موسوعته عن **تاريخ الأدب العربي المسيحي إلى آخر القرن الثاني عشر**، المكملة لكتاب كارل بروكلمان (1868-Carl Brockelmann 1956) في **تاريخ الأدب العربي**. ولا توجد معلومات كثيرة عن ابن سباع. أشار غراف فقط إلى أنه قد عاش في القرن الرابع عشر الميلادي⁽¹⁴⁾، وهو ما ذكره ابن سباع في مؤلفه، ذلك بأنه مضى على «المصدقين له [أي الإنجيل] من أعوام عددها إلى الآن ينيف على الألف وثلثمائة سنة»⁽¹⁵⁾. يتضمن الكتاب معلومات دينية شتى «من الذات الإلهية وصفاتها إلى أخبار التوراة والإنجيل إلى الكنيسة وبنياتها وزينتها وخدامها إلى الفضائل المسيحية والصلوات والقداس والأعياد السنوية والإكليروس والعلمانيين وواجباتهم»⁽¹⁶⁾.

«علماني» بفتح العين

ذكر ابن سباع في الباب التاسع والخمسين من كتابه عن اختصار صلوات «العلمانيين» وتطويل صلاة الرهبان؛ إذ جاء النص على النحو التالي: «أما صلاة العلمانيين فيجب أن تكون مختصرة لأجل اشغالهم بالمعاش الدنيوية. يجب عليهم أن يصلوا باكراً إلى الكنيسة بسجود وركوع وخلوا بال أيضاً وكذلك عشية بالشرح»⁽¹⁷⁾. وفي الباب السابع والتسعين، بعنوان في ذكر نهى الحاكم للأسقف أن لا يخرج عن قلايته إلى بيت العلمانيين، ورد لفظ علماني وعلمانيين عدة مرات من دون تغيير في دلالة اللفظ. والأثمن من ناحية الدلالة هو النص السابق لأنه أقدم بأربعة قرون. ولكن ما يضيفه هذا النص هو أنه مشكّل بالأصل كما تبين صورة الوثيقة في الأصل الموجود على موقع المكتبة الوطنية الفرنسية: والفتحة على العين واضحة. إنها علماني إذًا بفتح العين⁽¹⁸⁾. هكذا ورد اللفظ المستخدم باللغة العربية، وللأمر علاقة بالمعنى والسياق أيضاً.

وقد تطور استخدام كلمة علمانية عربياً مطلقاً هذا السياق وراءه للتعبير عن دلالات متعلقة بتحديد الدولة في الشأن الديني (والطائفي بداية)، أو بفكر يفهم العالم بقوانينه وليس بقوى غيبية من خلفه. وراج استخدام

12 لاحظ أنه يسمي الأقباط بالمصريين، وهي ترجمة دقيقة.

13 المصدر نفسه، ص 95. سبق أن أشار جورج طرابيشي إلى المصدر والاقتراب نفسه مستنبطاً أن السياق والدلالة يقودان إلى استنتاج أن اللفظ يعني علمانية بفتح العين، وأنه كان رائج الاستخدام في الكنائس. جورج طرابيشي، **هرطقات عن الديمقراطية والعلمانية والحداثة والممانعة العربية** (بيروت: دار الساقي ورابطة العقلايين العرب، 2006)، ص 216 - 217.

14 فنواتي، ص 223. Georg Graf, *Geschichte der christlichen arabischen Literatur*, Studi E Testi 133, vol. II (Città del Vaticano, Rome: Biblioteca Apostolica Vaticana, 1947), p. 448.

15 يوحنا بن أبي زكريا بن سباع (غير معروف تاريخ الولادة والوفاة)، **الجوهرة النفيسة في علوم الكنيسة**، حققه ونقله إلى اللاتينية الأب فيكتور منصور مستريح الفرنسي، دراسات شرقية مسيحية في الكنيسة المصرية (القاهرة: مؤلفات المركز الفرنسي-سكاني للدراسات الشرقية المسيحية، 1966)، ص 63.

16 المرجع نفسه، ص أ.

17 المرجع نفسه، ص 170.

18 كما سبق أن بينت من دون هذا الدليل التاريخي، متفقاً في ذلك مع آخرين، ينظر: بشارة، ص 76.

علمانية بكسر العين، وتغير معنى مصطلح علماني وعلمانيين حين يستخدم في وصف الأشخاص إلى الدلالة على من يتبنى العلمانية، ولم تعد تعني عامة الناس من غير رجال الدين إلا في الاستخدام الكنسي (حتى المعاصر). وأصبح الخلاف على المواقف وليس الدلالات هو الأمر الأهم. وقد خضت في هذا الأمر مطولاً في كتاب **الدين والعلمانية في سياق تاريخي**، وما هذا المقال إلا مناسبة للتأكيد أن اللفظ استخدم في اللغة العربية أقدم مما صورت في ذلك البحث، وأن أصل الاستخدام العربي للفظ بفتح العين، وهو استخدام شبيه باللاتيني لناحية الاشتقاق من دلالة الدنيوي الزمني.



العلمانية بكسر العين في القرن الرابع الهجري أيضاً

إذا كان العرفان الصوفي مصدر من جذر «ع ر ف»، ومنها اشتق لفظ المعرفة ومصطلح العرفان الصوفي الذي لن تتورط هذه المقالة القصيرة في تعريفاته وتفسيراته، فلماذا لا يمكن أن يشتق لفظ «علمانية» بوصفها مصدرًا صناعيًا من جذر «ع ل م»، بكسر العين؟ ليس هناك ما يمنع. ولكن الأهم من ذلك أن الاشتقاق حصل فعلاً في القرن الرابع الهجري أيضاً. مع أنه لم يَرَجَّ، وظل استخداماً مفرداً، فلم يصبح مصطلحاً صوفياً رائجاً، خلافاً للعرفان. لقد أقدم على هذا الاشتقاق الصوفي الشهير محمد بن عبد الجبار بن الحسن النفري (ت. 354هـ)، وذلك في كتابه **المواقف والمخاطبات**.

في بداية المخاطبة الرابعة يخاطب الله الإنسان، عبده، جاعلاً العلم به قائماً على الوجد به، وهو ممكن فقط عند تحرر الإنسان من الوجد بذاته من الذي يحجبه عن جميع المعلومات الأخرى، ولذلك فالوجد بالله شرط علمه، وعلمه مستحيل إذا تعلق المؤمن بالمعلومات الأخرى: «يا عبد؛ وإن أفقدتكَ الوجدَ بي حَبَبْتُكَ عن العلم بي، وإن حَبَبْتُكَ عن العلم بي علقتك بعلم من المعلومات سواي، وإن علقتك بعلم من المعلومات سواي أوجدتُكَ بك، وإن أوجدتُكَ بك عاد وجدك بك حاجباً عن المعلومات، فلا لك علم بمعلوم وأنت بك واجد، ولا لك علم بي وأنت بالمعلومات متعلق»⁽¹⁹⁾.

19 محمد بن عبد الجبار بن الحسن النفري، كتاب **الموقف ويليهِ كتاب المخاطبات**، تصحيح واهتمام آرثر يوحنا أربري (القاهرة: مكتبة المتنبلي، د. ت.)، ص 151.

ويقول أيضًا كأنه يلخص المراد من التركيب اللغوي الصوفي السابق: «يا عبد؛ آية معرفتي أن تزهد في كل معرفة فلا تبالي بعد معرفتي بمعرفة سواي»⁽²⁰⁾. ثم تأتي الجملة التي يستخدم فيها لفظ علمانية: «يا عبد؛ أنا ربك الذي تعلم وأنت عبي الذي تعلم، فأسجد⁽²¹⁾ علمانيتك بك لعلمانيتك بي»⁽²²⁾.

لفظ العلمانية هنا بكسر العين، ومشتق من العلم، ولكن خلافًا للنصوص التي تطرقنا إليها سابقًا، وورد فيها اللفظ بفتح العين؛ فإن دلالته في السياق الصوفي ليست التمييز بين مجالات الديني والدنيوي، أو المقدس والزمني، أو الحل والحرم، بل على العكس. صحيح أن مصدر لفظ علمانية في استخدامه: «علمانيتك بك وعلمانيتك بي» هو علم، ولكن الاستخدام يتجه إلى توحيد المجالات لا تمييزها، وإخضاع كل علم إلى الوجد بالله الخالق.

ولذلك؛ سواء أقلنا «علمانية» بكسر العين أم «علمانية» بفتحها، فإن المصدر العربي القديم القريب من الحقل الدلالي المقصود، وهو التمايز بين المجالين في عصرنا، هو ذلك التمييز بين المقدس والدنيوي، والروحي والزمني الكامن في تمييزات الكنيسة بين الكهنة والعلمانيين.

20 المصدر نفسه.

21 بمعنى اجعلها تسجد، أو ألزمها السجود.

22 المصدر نفسه، ص. 152.